مكيّة وآياتها ستّون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ
سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ
وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ
أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم
مِّن شُرَكَآيِٕهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآيِٕهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ

﴿ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

سورة «الروم» هي المنقطعة النظير بين سائر السور القرآنية تسمّياً بإسم قطر من أقطار الأرض، في حين لم تسمّ سورة بقطري الوحي القرآني مكة والمدينة، وعلّ ذلك الإختصاص لملابسة خاصة وقت نزولها تقتضي تلك التسمية، هي إن غلب الروم الموحدين في أدنى الأرض من المشركين الإيرانيين كان قد قوى ساعد المشركين في الجزيرة أن غلبوا إخوانهم، وكسر ساعد المسلمين إن غلب إخوانهم من أهل الكتاب، فليسمّ الروم غالباً ومغلوباً جبراً لذلك الكسر في نفوس المسلمين، وزيادة تحمل ملحمة غلب الروم على الفرس في بضع سنين.

وليست لتقف السورة - بعد - على تلك الغلبة الموعودة في حدود ذلك الحادث الجلل، فإنما هو مناسبة وقتية لينطلق بهم فيها إلى آماد أوسع من غلب المسلمين مشركي الجزيرة، ويا له ولغلب الروم من قِران عجيب إذ غلبوا في بدر وهم أذلة، وغلب معهم الروم بعد تسع من ذلك الوعد على الفرس، وهم أذلة و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَۙ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

ويا له من غزير النصر الموعود والمسلمون في مكة مهدّدون مستضعفون، تتواتر عليهم النوازل السوء في كل الحقول، وليسوا يعتمدون إلّا على نصر من الله وروح ورضوان!

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾

هي الثانية في المكيات الأربع حسب ترتيب التأليف، والثالثة بعد الأولى منها وهي البقرة المدنية الوحيدة في ﴿الٓمٓ﴾ والمجموع خمس رمزاً إلى ما يعرفه من خوطب بها فإنها من مفاتيح كنوز القرآن.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾:

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا هي أرض الحجاز بقرينة الروم، وهم قوم كانوا يسكنون ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمغرب، لهم امبراطورية شاسعة إلى أعماق الشامات وهي سوريا والأردن والقدس ولبنان والعراق الحالية.

فـ ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي الأدنى من الروم إلى الحجاز، فقد غلب الروم في عقر بلادهم بأبعد الأعماق، أن حلّقت حرب الفرس على الروم كله فغلبت عليهم في أدناها إلى الحجاز وهي أبعدها من الفرس، مما يدل على آماد الانكسار الشامل كل بلادهم: و﴿غَلَبِهِمۡ﴾ هنا مصدر بمعنى المفعول إذ احتفت بـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . . . سَيَغۡلِبُونَ﴾، وغلبهم عليهم بعدما غلبوا، في أصلها وفي الوقت المحدد ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ تحمل ملحمتين اثنتين، أن يقوم هؤلاء المكسورون المحطّمون عن بكرتهم على سوقهم لحدّ سيغلبون كما غلبوا، وذلك في أقل من عشر سنين وهي التسع الموافي لغلب المسلمين في بدر، قراناً منقطع النظير في غلب الضعفاء المؤمنين على الأقوياء الأغوياء المشركين، وهذان لا يلائمان التقويمات العسكرية في نفس الوقت الذي غلبت الروم انهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

﴿بِضۡعِ﴾ هي مادون العشرة، من ثلاثة إلى تسعة، كما في السنة[1] وفي

(١) في الدر المنثور ٥: ١٥١ - أخرج في أحاديث عدة عن النبي ﷺ أن البضع ما بين الثلاث إلى العشر، رواه عنه نيار بن مكرم وقتادة.

اللغة، وهذه نبوءة صادقة بائقة تبشر بتلك الغلبة الفائقة، يعرف الرسول ﷺ مداها، مهما لم يحد في ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ إلا تقريباً قريباً، وعلّه كيلا يفاجأ الوحي بتكذيب في عجالة عارمة، فلقد كانت فارس ظاهرة على الروم مما كان يحبه المشركون، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفارس لأنهم أهل كتاب يشاركونهم في التوحيد والإيمان الكتابي، فلما أنزلت ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُۙ﴾ قالوا - فيما قالوا -: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق، قالوا: هل لك أن نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين

فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا: دون العشر - قال: اذهب وازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس[1] وقد غلب المسلمون حينه ببدر ففرح بذلك المؤمنون فرحتين»[2].

(١) المصدر أورد بهذا المضمون أو ما يقرب منه أحاديث عدة عن الرسول ﷺ.

(٢) المصدر ومما أخرجه فيه بهذا الصدد ما عن ابن عباس في الآية قال: قد مضى كان ذلك في أهل فارس والروم وكانت فارس قد غلبتهم ثم غلب الروم بعد ذلك والتقى رسول الله ﷺ مع مشركي العرب والتقى الروم مع فارس فنصر الله النبي ﷺ ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على العجم، قال عطية وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك فقال: التقينا مع رسول الله ﷺ ومشركي العرب والتقت الروم وفارس فنصرنا على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على المجوس فذلك قوله: ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. وفيه (١٥٢) أخرج ابن جرير عن عكرمة ان الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض - قال: وأدنى الأرض يومئذ أذرعات بها التقوا فهزمت الروم فبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشتموا فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١-٢] فخرج أبو بكر إلى الكفار فقال: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا - إلى آخر القصة».

وذلك مما يوحي بترابط وثيق عميق بين الكفر والشر أياً كان وأيان، وكذلك الترابط بين كتلة التوحيد والإيمان.

وهكذا انتبه المؤمنون على عهد الرسول ﷺ على ضوء دعوته الشاملة أن ليس الإيمان محصوراً بحصار زمان أو مكان كما الشرك، فالكفر ملة واحدة كما الإيمان، فهما خارجان عن كافة الحدود التاريخية والجغرافية والجنسية والقومية أماهيه؟

فالمعركة في صميمها هي معركة الإيمان والكفر بين حزب الله وحزب الشيطان أياً كانوا وأيان، والمسلمون يد واحدة على من سواهم تسعى بذمتهم أدناهم، دون أن تفصل بينهم حدود الزمان والمكان وسائر الأبعاد والألوان، حيث تجمعهم كلمة التوحيد، فلهم إذا توحيد الكلمة في كافة الأعصار والأمصار.

وما أحوج المسلمين اليوم أن يدركوا طبيعة المعركة المتواصلة بين الكتلتين، فلا تلهيهم أعلام مزخرفة زائفة من الضفة الكافرة، المخيّلة إليهم أنهم أحزاب متفرقة، فإنهم ككلّ يحاربون الموحدين على العقيدة مهما تنوعت ألوان العلل وقضايا الأسباب.

هنا ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم في الحربين المقارنتين، كما ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ﴾ الله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فقد حصل بعد الرسول ﷺ في حرب المسلمين الفرس فتغلبوا عليهم وهذا من تأويل آية النصر[1] ثم نصر متواصل للمسلمين ما قاموا بشرائط الإسلام: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ

(١) نور الثقلين ٤: ١٦٨ في روضة الكافي ابن محبوب عن جميل بن صالح عن أبي عبيدة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: يا أبا عبيدة إن لهذا تأويلاً لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم من آل محمد ﷺ أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وأظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسوله يدعوه إلى الإسلام وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الإسلام وبعثه إليه مع رسوله فأما ملك الروم فعظم كتاب رسول =

﴿إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾(١).

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ الله فيشاءه الله، ومن يشاء منهم النصر بتقديم أسبابه فيشاء الله له النصر بأسباب غيبية، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكتلة الإيمان القائمة بشرائطه، فهناك - إذاً - على طول الخط انتصارات متصلة الجهات، متشابهة في شروطات حسب القابليات والفاعليات ثم ﴿ٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وعلى أية حال فـ ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ في النصر ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ لا سواه، كما «له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد ان يأمر به بما يشاء»(٣) تكوينياً أو تشريعياً.

= الله ﷺ وأكرم رسوله وأما ملك فارس فإنه استخف بكتاب رسول الله ﷺ ومزقه واستخف برسوله وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم فارس وكانوا لناحيته أرجى منهم لملك فارس فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتموا به فأنزل الله بذلك كتاباً قرآناً: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . . .﴾ [الروم: ١-٢] يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض وهي الشامات وما حولها ﴿وَهُمْ﴾ [الروم: ٣] يعني فارس يغلبهم المسلمون ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ . . .﴾ [الرُّوم: ٤] فلما غزى المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله عزوجل.

قال: قلت: أليس الله عزوجل يقول: في بضع سنين «وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله ﷺ وفي إمارة أبي بكر وإنما غلب المؤمنون فارساً في إمارة عمر؟ فقال: ألم أقل لك أن لهذا تأويلاً وتفسيراً، والقرآن يا با عبيدة ناسخ ومنسوخ أما تسمع لقول الله عزوجل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرُّوم: ٤] يعني إليه المشية في القول أن يؤخر ما قدم ويقدم ما أخر في القول إلى يوم يحتم القضاء بنزول النصر على المؤمنين وذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥] أي يوم يحتم القضاء بالنصر».

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٣) نور الثقلين ٤: ١٧٠ في الخرائج والجرائح في أعلام الحسن العسكري عليه السلام ومنها ما قال أبوها سأل محمد بن صالح أبا محمد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ فقال: . . .

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ قد يكون مفعولاً مطلقاً لـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أم مفعولاً لمثل «صدقوا» وهو على أية حال تأكيد أن: «سيغلبون» وعد من الله محتوم و﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ حيث الخلف ليس إلّا عن جهل أو عجز أو بخل أو ظلم أو نسيان إمّا ذا من نقص فيمن وعد، والله بريء عن كل ذلك فلا خلف لوعده، فإنه صادر عن علمه وإرادته الطليقة وحكمته العميقة، قادراً على تحقيقه، ولا رادّ لإرادته، ولا معقّب لحكمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعد الله، ولا أنه لا يخلف الميعاد، وهم غير المؤمنين بالله، انهم لا يعلمون كناس منقطعين عن الأيمان ووحيه وعد الله وإنجازه، فحقاً إنهم لا يعلمون، وإنما:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾:

هنا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بديلاً عن «لا يعلمون» إعلان صارخ أن علمهم هذا جهل أمام العلم الحق الحقيق بالإنسان، ثم هي استثناء عن «لا يعلمون» تستثني ضئيلاً من العلم يختص ظاهراً من الحياة الدنيا، فأصل العلم هو العلم الإيمان الإيقان بالمبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد، من الواجب معرفته أخذاً من المبدء وحياً وسواه، وانتهاء إلى المعاد لقاء للرب.

ثم العلم بالحياة الدنيا إذا كان ذريعة إلى الشعور الكامل بزوالها، ومنظاراً للنظر إلى عواقبها، ومعياراً للعمل الصالح فيها لأخراها، فهو علم بباطنها إبصاراً بها حيث تبصر أصحابها، دون الإبصار إليها كمنتهى وغاية فإنها - إذاً - تعميهم.

هؤلاء الأغبياء إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقد يعلم باطنها بملكوتها ويركن - رغم ذلك العلم - إليها، أو يعلم كل ظواهرها ومظاهرها دون باطنها فأجهل بالحق وأنكى، ذرهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ألم يعلموا أن لها مبدءً ومعاداً؟.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾:

فقضية تكوينهم أن يفكروا كيف كوّنوا ومن كوّنهم ولماذا؟ وأن يتفكروا في أنفسهم - دون اقتصار على ظاهر من الحياة الدنيا - يتفكروا أنه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: بسبب الحق وغايته ومصلحته ومصاحبته، وإلّا بـ«أجل مسمى» حيث الكون بنفسه دليل على ضرورة نهايته كما يدل على بدايته للفقر الذاتي فيه، «و» لكن ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم النسناس منهم ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ في ربوبية الجزاء يوم الآخرة ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ كفراً مصلحاً عامداً، أم تجاهلاً وتغافلاً.

ويكأنهم منفصلون عن نفوسهم الإنسانية إذ انقطعت عن أنفسها وانجذبت إلى ظاهر من الحياة الدنيا، فلا تسمح لهم أن يبصروا بها حتى يتبصّروا وإنما يبصرون إليها فيعمهون كل عاقل ذي نفس إنسانية لمّا يسبر أغوار نفسه وهو يرى خلق الكون، لا بد وأن يرى له غاية مقصودة ترجع إلى الكون نفسه وأنفس نفيسه وهو الإنسان، فلو لم تكن حياة أخرى بعد الدنيا لكان الخلق لغواً، أم لغاية جاهلة قاحلة هي الحياة الدنيا! فكيف إذا هم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ دون كل ظواهرها، ظاهراً من حيونة الحياة ضئيلاً زهيداً قليلاً هزيلاً، متبهّجين بها، مخلدين إليها، متمتعين بها، مستزيدين متزايدين بشهواتها وزهواتها، ملتهين بلهواتها، كأنها هي الحياة لا سواها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

«هم» الثانية هنا تأكيد أنهم لا سواهم غافلون عن الآخرة، حيث العالم بكل ظواهرها، والعالم بباطن لها أم كل باطن لها، لا بد وأن يذكر الآخرة المتلمعة منها.

ولأن الغفلة ليست إلّا عن أمر حاصل، فلا بد أن العلم بالدنيا كما يحق يضم العلم بحق الأخرى، فالحياة الآخرة علماً بها وتحقيقاً لها هي من

محاصيل الحياة الدنيا، حيث النظر الصائب إليها يذكّر الناظر الحياة الأخرى، والعمل الصالح فيها يحضّر حياة الحيوان في الأخرى.

كل ظواهر الحياة الدنيا محدودة معدودة، فضلاً عن ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مهما بدأ لأهلها شاسعاً ناصعاً، والآخرة هي الحلقة الأخيرة الدائبة في سلسلة النشآت الحيوية، فكلما بعدت آماد العلوم والأنظار في هذه الحياة، طليقة عنها إلى حقيقتها الحاضرة والمستقبلة، واتسعت الآفاق في تلك المطلّعات والنظرات، كانت حصيلة العلم بالآخرة أزهى وأضحى، وأصحابها أبصر بالحق الطليق وأبعد عن العمى، وعلى حدّ قول الإمام علي عليه السلام في وصفها: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾:

وإذا لم يعلموا هم في أنفسهم إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا إذ لم يتفكرا فيها فغفلوا عن الأخرى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سيراً آفاقياً بعد التغافل عن السير الأنفسي ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ نظر التعقل والتفكير والإعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من المشركين أضرابهم، أن أخذهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون وقد ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ عدّة وعدّة ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ إثارة الزرع والعمار ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ بمختلف العمار ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ وهم كما أنتم جاءتهم ﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ﴾ فجحدوا بها ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أن يعذبهم دون حجة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بما كذبوا وما عذّبوا.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿عَٰقِبَةَ﴾ خبر مقدم لـ«كان» فقد يكون اسمها ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أم ﴿أَن

﴿كَذَّبُوا﴾ و«السوأى» مفعول أساءوا، وهي كالحسنى وضدها في المعنى، مؤنث الأسوء: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾[٢].

فالمعنى على كونها الاسم المؤخر أن عاقبتهم أسوء من حاضرتهم، فحياتهم الحاضرة سيئة بكفرهم وعذاب الاستئصال، والحياة العاقبة لهم من الرجعة والبرزخ والقيامة هي السوأى، أن كذبوا بآيات الله، فقد كان السوأى عاقبتهم بما كذبوا، وليست السوأى هي الأسوء من سوئهم لأنه خلاف ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٣] بل هي الأسوء من دنياهم، رغم انها دار الحَيَوان.

وعلى الثاني، ثم كان التكذيب بآيات الله عاقبة الذين أساءوا السوأى، إن خلّفت سوآهم في سيآتهم أن كذبوا بآيات الله.

ولكن ﴿السُّوأَى﴾ لا تصلح مفعولاً لـ ﴿أَسَاءُوا﴾ فإنها لا تُساء إلّا تحصيلاً للحاصل بل الأحصل، ثم التأنيث لا يناسب المقام، بل هو - إن صح - أساء الأسوء، أي: عملوا الأسوء، كما ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

فالتعبير الصحيح الفصيح عن مفعولية ﴿السُّوأَى﴾ هو «عملوا الأسوء» تبديلاً لكل من الفعل والمفعول، ثم يبقى - إذاً - ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عطفاً لا يناسب السبب ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ لأنه مع ﴿السُّوأَى﴾ ردفاً مفعولياً، لا مع ﴿كَذَّبُوا﴾ ردفاً سببياً.

إذاً فالإسمية لها هي المتعينة، إن الحياة السوأى هي عاقبتهم في رجعة

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٧.